أبو الأنبياء

إبراهيم الخليل

المهاجر دومًا إلى الله

obeikandl.com

obeikandl.com

أبو الأنبياء إبراهيم الخليل

مضت سنوات على رسالة نوح عليه السلام. ونسى الناس رحيق السماء.. نسوا رسالة التوحيد التى جاء بها نبى الله نوح.. وبدأوا يعبدون أصنامًا لا تنفع ولا تضر، وبعضهم أخذ فى عبادة الكواكب والنجوم ظنًا منهم أن تلك العبادات تقربهم إلى الله زلفى!

وفى أرض (بابل) ولد إبراهيم. وهاله أن يرى الناس قد أضلتهم أهواؤهم، وقدسوا أشياء لا تنفع ولا تضر.. وهدته فطرته السليمة إلى أن القوم قد بعدوا عن المنطق والصواب، فضلوا وأضلوا!

وأدهشه أن والده (آزر) قد ارتفعت مكانته بين الناس؛ لأنه يقوم بصناعة هذه الأصنام التى يعكف القوم على عبادتها.

لقد فكر إبراهيم طويلاً عاملاً فكره - قبل أن يأتيه وحى السماء - فيما يقدسه الناس.. إنهم كانوا يعبدون القمر والنجوم والشمس.. ولكن القمر يأفل.. والنجوم تختفى، والشمس يعتريها الغروب.. إنها أجرام يعتريها النقصان فلا يمكن أن تكون آلهة. وأسوأ من كل ذلك أن يعبدوا أصنامًا يصنعونها بأيديهم ويخرون لها ساجدين!

وأقنعته فطرته السليمة أن وراء هذا الكون خالقًا عظيمًا، ينظم أموره، ويعرف كل أسرار خلقه.

وكان عليه أن يواجه قومه.. وأعلن أمامهم بعد أن حاول أن يقنعهم بعبث ما يعتقدون: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

وعندما رأى الجزع على وجوههم وهو يسفه عقولهم ويلعن آلهتهم، أوضح لهم حقائق الأمور:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٧٨ - ٨١].

وكان من الطبيعى أن تصل سخريته بآلهتهم المزعومة إلى مسامع الناس. وأن تصل أيضا إلى مسامع ملكهم (النمروذ) الذى كان يعتبر نفسه إلهًا.

وكان عليه أن يواجه الناس.. يواجه الملك. ويواجه أباه.. وكان بحكم النبوة يتمنى أن يدخل أبوه فى عداد المؤمنين.

قال لأبيه:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٥].

ولكن الأب بدلا من أن يثوب إلى رشده، ويفكر فى كلمات ابنه البار، عدّ ذلك تطاولا عليه، وتمسك بشركه، وهدد ابنه بالطرد والعقاب.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ٤٦].

ووجد خليل الرحمن أن عليه أن يقوم بعمل يهز هذا المجتمع المشرك من الأعماق، ويجعله أمام واقع جديد.. لا بد أن يشعرهم أن هذه الأصنام التى يقدمون لها القرابين لا تستطيع حتى الدفاع عن نفسها!

لقد تسلل إلى المعبد الذى يمتلئ بالأصنام.. وحطم هذه الأصنام، ووضع معوله فى رقبة الصنم الأكبر.. وكان من الطبيعى أن يثور الناس من هذا الذى سخر من آلهتهم، وكان من الطبيعى أن تشير أصابع الاتهام إلى إبراهيم الذى طالما سخر من عبادة الأصنام.. سألوه:

﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢].

أجابهم إجابة فيها السخرية بعقولهم ومعتقداتهم:

- بل فعله كبيرهم هذا.. فاسألوهم إن كانوا ينطقون!

ويصور لنا القرآن الكريم هذه الأحداث فى لوحة بيانية بالغة

التعبير، وفى كلمات بالغة المنطق والروعة.. بإعجازه العظيم: يقول الله - تعالى - فى سورة الأنبياء:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٠ - ٦٨].

لقد خرست ألسنتهم، ولم يعد فى إمكانهم إقناع إبراهيم بمعتقداتهم، ولم يستطيعوا فى الوقت نفسه أن يقتنعوا بدعوة خليل الرحمن، وأرادوا أن يكون عبرة لمن يتطاول على عباداتهم

ومعتقداتهم، وقرروا التخلص منه حرقًا بالنار.. ولكنهم ذهلوا عندما ألقوا به فى أتون النار المشتعل.. وعندما خمدت النار وجدوا إبراهيم كما هو.. لم تمسه النار بأى سوء.. لقد حدثت المعجزة الإلهية بالأمر الإلهى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ويأمر الملك (النمروذ) أن يمثل الخليل بين يديه.. بكل ثبات الأنبياء يرد الخليل على الطاغية بالمنطق والحجة.. إنه يدعو إلى الإيمان بالله الواحد.. خالق كل شىء.. وهو الذى يحيى ويميت.. وإليه يرجع مصير كل الكائنات.

ولكن الملك بعناد الطغاة يخبره أنه هو الآخر يحيى ويميت. إن باستطاعته أن يأمر بقتل برىء.. وفى الوقت نفسه يمكنه أن يأمر بالعفو عن إنسان محكوم عليه بالموت.. وبالتالى فهو يحيى ويميت.

ولكن الخليل يلهمه ربه أن يقول للطاغية أن الله سبحانه وتعالى يأتى بالشمس من المشرق، وعليه إن كان إلهًا أن يجعلها تأتى من المغرب، ويخرق بذلك نواميس الكون التى خلقها الله جل علاه.. وهنا بهت الملك الكافر على حد تعبير القرآن الكريم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقرر الخليل إبراهيم أن يترك هذه البلاد التى يعشش فيها الجهل والكفر.. إن الناس رغم رؤيتهم معجزة نجاة إبراهيم ظلوا فى جهلهم يعمهون.. ولم يؤمن به إلا (سارة) التى أصبحت زوجته فيما بعد، بعد أن هاجرت معه ومعهم ابن أخيه لوط. وقرر الهجرة إلى الله.

واستقر به المقام فى مدينة (حران) التى أخذ يدعو فيها إلى الإيمان بالله، ونبذ عبادة ما دونه من أصنام وأوثان وكواكب ونجوم، ولكن صيحاته ذهبت أدراج الرياح كما حدث فى بابل.. والناس هم الناس.. والعقول هى العقول.. والقلوب الصلدة هى القلوب الصلدة الصماء نفسها !

ومرت أعوام لا يعلمها إلا الله.. وإبراهيم يدعو الناس، والناس فى وادٍ آخر.. إلى أن حدث جدب فى (حران) اكتسح كل شىء فى أرض فلسطين، وقرر الخليل أن يهاجر مع زوجته إلى مصر، حيث الخصب والنماء، وكانت مصر فى هذه الأثناء تقع تحت استعمار الهكسوس!

وأقام إبراهيم فى أرض مصر هو وزوجته سارة وابن أخيه لوط.. وقد أهدى حاكم مصر إليه هاجر.

كان خليل الرحمن قد تقدمت به السن، وتسلل الشيب إلى شعره، وكانت سارة عقيمًا لا تلد!

وذات يوم جاء مبعوث الملك إليه يطلب منه العودة إلى فلسطين

بعد أن زال عنها خطر الجفاف، وأخذ خليل الرحمن أهله ليعود من جديد إلى حران إلا أنه فضل أن يعيش فى بقعة قريبة من (بئر سبع)، وفى هذا المكان الذى قرر أن يعيش فيه.. تذكر طفولته.. وتذكر والده الذى تركه فى بابل.. وتذكر دعوته إلى الله التى لم يستجب لها إلا عدد ضئيل من الناس.. استقر به المقام فى هذه البقعة من الأرض.. ورأت سارة أحزان إبراهيم الخليل وكثرة تفكيره.. وأرادت أن يرزقه الله ولدا يملأ عليه حياته، فاقترحت عليه أن يتزوج هاجر المصرية.. وعندما حملت هاجر.. وأنجبت إسماعيل شعرت سارة بالغيرة منها فطلبت من الخليل أن يذهب بها إلى مكان آخر.

إن القدر يهيئ الأمور لمرحلة جديدة؛ لتمتد الدعوة إلى آفاق جديدة..وأماكن جديدة.. سيكون من نتائجها الدعوة الخاتمة التى ستكون خاتمة الدعوات بميلاد آخر رسل الله من نسل إسماعيل ابن خليل الرحمن.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠].

لقد ألهمه الله أن يلجأ بأهله إلى مكان مهجور عند بيت الله الحرام!

وعندما ذهب بهاجر وابنه إسماعيل إلى تلك الأماكن المهجورة سألته زوجته: أأمرك الله بذلك؟

وعندما أجاب بالإيجاب اطمأن قلبها وقالت:

- إذن لن يضيعنا الله!

وفى هذا المكان القفر الذى لا يوجد به ماء ولا زرع.. حيث الصحراء والجبال.. كان عليها أن تجد ما يروى ظمأ ابنها وظمأها.. وأخذت تهرول بين (الصفا) و (المروة) لعلها تجد بعضًا من الماء، بينما تركت طفلها بالقرب منها وهى تسعى وتجد فى البحث.. وعندما أعياها التعب والجهد فوجئت بتدخل السماء.. لقد انبثق الماء من تحت قدمى الصغير (بئر زمزم).. وسرعان ما جاءت الطيور حول هذا النبع من الماء، وشاهدت قبيلة (جُرهم) تدفق الطيور فى السماء؛ فعلمت أن بالقرب منهم نبعا من الماء.. وهكذا انتقلت هذه القبيلة إلى هذا المكان القريب من بيت الله الحرام الذى كان قد بناه آدم عليه السلام، ثم جرفته السيول.. وهكذا أرسل الله إلى هاجر ووليدها من يزيل عنهم جفوة الغربة والوحدة. لقد استجاب الله دعاء خليله:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

كان قلب خليل الرحمن يهفو إلى مكان ابنه إسماعيل وزوجته هاجر بجانب انشغاله بأمر الدعوة.. إلى أن رأى رؤيا فى منامه بأن يذبح ابنه إسماعيل! قام الرجل يفكر فى هذه الرؤيا.. فرؤيا الأنبياء

لا يتدخل فيها الشيطان.. إنه إذن أمر إلهى وما عليه إلا أن يعبر الصحراء، ويتجه صوب البيت الحرام.. ويحقق ما رآه فى المنام.. أن يذبح فلذة كبده ووحيده إسماعيل.

إنه امتحان عسير لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرسل.. لقد اشتاقت نفسه طويلا إلى الولد الذى يملأ عليه الحياة.. وعندما جاء الولد.. كان عليه أن يفارقه ويذهب به إلى بلاد بعيدة.. ويُحرَم الولد من حنان الأبوة.. ثم ها هو الآن يزداد الامتحان فيؤمر بذبح وحيده!

يأخذ خليل الرحمن فى طى هذ المسافات البعيدة بين فلسطين والحجاز.. وعندما يصل إلى حيث زوجته وولده.. يرى إسماعيل وقد أصبح طفلا وديعًا جميلا.. ذكيا ورث عن أبيه الفطنة وحدّة الذكاء ونقاء السريرة.

وقص الأب على الابن رؤياه. قال:

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

بلا تردد أجاب الابن وهو يمتثل لقضاء ربه:

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أى موقف هذا الذى نراه فى هذا المشهد التاريخى الخالد.. أب

يقوم على ذبح أحب إنسان إلى قلبه امتثالا لأوامر ربه، وإسلامًا وتسليمًا بقضائه.. وابن فى عمر الزهور يرى فى أوامر الله أشياء لا تناقش فيذهب مع أبيه طائعًا مختارًا.. لايعتريه خوف ولا يهزه ما هو صائر إليه.. مشهد لا يستطيع قلم أن يصوره، ولكن الله عز وجل صوره فى كتابه العزيز تصويرا بالغ الجمال والعذوبة، بعد أن فدى الابن بذبح عظيم:

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١١١].

وتمضى الأيام.. ويشعر خليل الرحمن أنه أصبح شيخًا كبيرًا ويتذكر ابن أخيه لوط.. وما يلقاه من قومه الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء.. وظل لوط ينصحهم أن يعودوا إلى الطهر والطهارة، ويسلكوا الطريق المستقيم، ولكن قومه أبوا عليه دعوته، وتمادوا فى غيهم وضلالهم.. وكان مما يزيد فى عذاب لوط عليه السلام زوجته التى كانت لا تصدق برسالته!

وبينما كان خليل الرحمن يفكر فى كل ذلك إذ وجد ثلاثة من الرجال يقدمون عليه.. ليس عليهم مظاهر السفر وما ينتج عنه من تعب ونصب وأتربة الطريق.. وعندما أراد أن يكرمهم ويستضيفهم

وقدم لهم الطعام لم يقدموا أيديهم إلى الطعام.. زادت دهشته وحيرته وتناوبته المخاوف.. من يكونون هؤلاء الضيوف الغرباء؟

وشعروا هم بالموقف الذى لا يُحسَد عليه نبى الله الخليل، فأخبروه أنهم رسل الله.. وأنهم متوجهون إلى لوط.. وقبل مغادرتهم له بشروه بأنه سوف ينجب ابنًا (إسحاق) من سارة!

وزادت دهشة الخليل.. كما زادت دهشة سارة.. كيف تلد وقد بلغت من العمر ما بلغت.. وإبراهيم شيخ كبير.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

ويحدثنا الإمام ابن كثير فى تفسيره أنه لما ذهب الروع عن إبراهيم وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير فى الآية قال: لما جاء جبريل ومن معه قالوا له: إنا مهلكو أهل هذه القرية.

قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنًا؟

قالوا: لا.

قال: ثلاثون؟

قالوا: لا. حتى بلغ خمسة قالوا لا؟

قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟

قالوا: لا.

فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢].

قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢] فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

وتوجهت الملائكة حيث يوجد لوط.. اتجهوا إلى (سدوم) وكانت ابنة لوط تملأ جرتها من ماء النهر عندما تناهى إلى سمعها من يسألها عن بيت يبيتون فيه!

التفتت إليهم. رأت ثلاثة من الشباب البالغ الحسن والوسامة.. طلبت منهم أن يظلوا فى مكانهم حتى تخبر أباها.. وعندما سمع لوط بذلك شعر بالضيق والحرج.. إنه يوم عصيب بالنسبة إليه.. فقومه لن يتركوهم وسيكون هو فى غاية الحرج.. كيف يحميهم من هؤلاء القوم الذين لا يريدون أن يطهروا ولا يريدون الفضيلة.. وقد شاع فيهم الشذوذ!

لقد ذهب لوط إليهم..وعندما رآهم فى حسنهم شعر أنه فى موقف صعب.. وأخذهم إلى داره.. وما كادت زوجته تراهم حتى انطلقت تخبر قومها بأمرهم.

وجاءوا يتدفقون على منزل نبى الله.. وأحس هو بالحيرة وعرض عليهم أن يذهبوا إلى نسائهم.. فذلك أطهر لهم، ولكنهم أصروا على موقفهم.. ويصور القرآن الكريم ذلك بأسلوبه المعجز:

﴿ **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾** ﴾ [هود: ٧٧ – ٧٩].

ويقول الإمام ابن كثير فى تفسيره (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم).

قال مجاهد: لم يكن بناته ولكن كُنَّ من أُمَّته وكل نبى أبو أُمّته.

وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يعرض عليهم سفاحًا.

وقال سعيد بن جبير: يعنى نساءهم هن بناته وهو نبيهم.

وفسر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨] أى اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

واطمأن نبى الله لوط عندما عرف من هؤلاء الضيوف أنهم رسل الله.. وأن القرية سوف تلقى العذاب، وأمروه أن يخرج ليلا من هذه القرية فسوف ينجو هو وأهله عدا زوجته.

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١]

وتحقق وعد الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

هزت الفرحة أعماق خليل الرحمن على نجاة ابن أخيه لوط، وهلاك المجرمين!

وعندما جاش الحنين بقلب النبى إلى رؤية ابنه إسماعيل توجه إلى ابنه فى بلده البعيد.. إنه فى طريقه لإعادة بناء القواعد من البيت..

وإقامة هذا البيت الذى سيصبح مثابة للناس وأمنًا.

كان إسماعيل قد وصل إلى مرحلة الشباب.. يتحدث العربية بطلاقة.. ويركب الخيل.. وكان قد تزوج للمرة الثانية من قبيلة جرهم التى جاورته وأنست وحدته.. ويقول الرواة إنه كان قد تزوج من قبل فتاة لم يرتح لها خليل الرحمن.. عندما كانت تشكو من الفقر فطلب منه الخليل تطليقها فتزوج الثانية!

وقصة زواج إسماعيل تحدث فيها الرواة كثيرًا.. وفيها أقوال كثيرة.. فقد قال البعض إنه ليس من المعقول أن يقطع خليل الرحمن المسافة من الشام إلى مكة.. ثم يرجع دون أن يرى ابنه.. بل يرى زوجته التى اشتكت له الحال.. فقال لها: قولى لزوجك عندما يعود أن يغير عتبة الباب! ففهم إسماعيل أن الشيخ القادم كان أباه، وأنه يأمره أن يغير زوجته! ومهما يكن من شىء فلن نقف طويلا عند حكايات الرواة.. بل نقف عند هذا الحدث المهم وهو بناء الكعبة المشرفة.. فى بيت الله الحرم.. لتكون مكان الأمن والأمان، ويحج الناس إليها من كل فج عميق، وتصبح فيما بعد قبلة نبى الإسلام محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وإليها يحج المسلمون، ويصبح هذا الحج فريضة على كل قادر من المسلمين من ذكر أو أنثى فى العمر مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ**

وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٥ - ١٢٨].

ونختار من تفسير ابن كثير قوله:

وتقدير الكلام إذًا: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.. أى طهراه من الشرك والريب. وابنياه خالصًا لله معقلا للطائفين والركع السجود.. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية ومن قوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

وقد وردت أحاديث تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض.. مثل قوله عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة:

«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبل ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا

يعضد ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها».

قال العباس: يا رسول الله: الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم.

فقال: إلا الإذخر.. (الإذخر: حشيش طيب الريح) [وهذا لفظ سليم].

* * *

لقد أقام خليل الرحمن وابنه إسماعيل القواعد من البيت ليكون ملاذا للناس.. وقبلة للمسلمين فيما بعد.. وكان عند بنائه يرفع عينيه إلى السماء ويدعو لنفسه ولابنه ولأمته:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾

وقد قال الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومعنى هذا أن دعوته شاملة.. دعوة لجميع الناس.. أن يلتزموا بوحدانية الله.. وأن ينبذوا كل شيء عداه؛ لأنه مبدع كل شيء.. وإليه مصير كل شيء.. وإن الإيمان بالله يقتضى عمل الفضائل والابتعاد عن الرذائل.

وفى هذه البقعة الطاهرة التى أقيم فيها بيت الله الحرام نفسها.. دعا خليل الرحمن أن يبعث فى هذه البقاع النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام والذى ستكون شريعته وتعاليم دينه للناس كافة من كل

الألوان والشعوب والأجناس.. والذى سوف تختم به رسالات السماء:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

إنها الدعوة الطاهرة للرسول الطاهر. قالها الخليل إبراهيم.. واستجاب له الله عز وجل.. أو بمعنى أدق أفصح عنها إبراهيم الخليل.

ويروى الإمام ابن كثير فى تفسيره أن الرسول العظيم سئل:

ـ ما كان بدء أمرك؟

قال: دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى بى، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام.

والمراد أن أول من نوَّه بذكره وشهره فى الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره فى الناس مشهورًا سائرًا، حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسبًا وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام فى بنى إسرائيل خطيبًا وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ولهذا قال هذا الحديث: دعوة إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم.